

لامية

للأستاذ محمود الحضيف

نهض الفتية واقفين في اعتدال وأمسكوا
عن الظيايط والضحك حين أقبل عليهم
ذات مساء من أماسى مايو على أخو العمدة
وكانوا خمسين أو يزيدون قد فرغوا منذ
قليل من علمهم المضى وبدا في وجوههم التعب
إذ كانوا طيلة نهارهم يحملون مقاطف الفحم
واللبنات الثقيلة على كواهلهم إلى حيث أخذ
البنائون يرصونها على نظامهم طبقات بعضها
فوق بعض يتخللها الفحم ليجمعوا من ذلك
اللبن آجرا بالحريق

وكان الفتية قد تقاضوا منذ لحظة أجز
بومهم من صراف العمدة وكانوا جميعا في
الأجر سواء لافرق بين قويمهم وضعيفهم .
ولقد تعودوا أن يظفروا كل مساء ببضعة
قروش زيادة على أجرهم من على أو الأستاذ
على كما تعود الناس أن يدعوه في القرية .
وألقي الأستاذ إليهم السلام هاشا كما يفعل
كل أمسية ، وردوا مرحبين وإن بدا عدم
الارتياح على وجوههم لرؤيته في ملابس
المدينة فلمله مسافر الليلة ، ثم أخذ يضع
بنفسه في يد كل منهم ثلاثة قروش وهو
كمادته يحذرهم ضاحكا من الممسل والشاى

الأسود ، وهم يتظاهرون بالطاعة ويضمرون
العصيان حتى بلغ آخر الصف فالتفتوا ليروا
ماذا يضع هذا المساء في كف صابر . ونظر
الأستاذ إلى صابر معجبا وهو يقول له :
« أنت اليوم بخمسة رجال يا صابر وكنت
أمس بأربعة » ثم ألقي في يده قدر ما يلقيه
إلى خمسة منهم . فهلل وجه صابر الذي
يترقق فيه ماء الشباب ولا يبدو فيه أثر
الجهد ، وقال وهو يرفع يده القوية التي يخططها
الوشم إلى رأسه بالتحية وقد التمت بنشوة
الفوز عيناه المليحتان : « وغدا بمشرة إن
شاء الله يا سيدى .. ربنا يطيل لنا عمرك »
ونفرك الفتية إلى دورهم وقد أخذت
تشرب كدرة الأفق حمرة الشفق .. وما
كادوا يتعمدون حتى أخذ بعضهم يتماززون
وبعضهم يتهامون . وقال أحدهم في صوت
مسموح : « والله إنه يكرمه من أجل عيني
نعمة .. عينيها الخضراوين وهذا .. العبيط
لا يفهم شيئا » وقال آخر : « حذار ، فإن شبل
ابن خالها وراءك قادما من حقله » وقال
ثالث : « لا والله بل إن الأستاذ يحب صابرا
منذ صغره ويمعجب بقوته ومواديله وأرغوله

ولم لا تفر بالحق فهو بخمسة منا أو أكثر»
وسمع شبل هذه العبارة فقال في غيظ وقد
مر بهم على ظهر حماره : « اليوم بخمسة
منكم وأمس كان بأربعة وغدا بسبعة ! والله
هذا كلام فارغ . ولست أدري ماذا يعجب
الاستاذ فيه ! »

ومر صابر بهؤلاء ، ولم يسمع ما يقولون .
والتفت شبل فنظر إليه نظرة كلها حقد
وبعض فضحك من رأوه من الفتية

كان صابر في الثانية والعشرين من
عمره ، ريان الشباب ، تأخذ المين قامته
الديدة في غير إفراط ، وجسمه المني في
غير بدانة ، وعدله الفحول في غير غنظ ،
وتمعجب الناظر إليه فوق ذلك وسامة في
وجهه الأسمر ، وملاحظة في عينيه السوداوين ،
ووشم أزرق في صورة عصفورين على عارضيه ،
وأسطر من هذا الوشم في ظاهر كفيه .
وقل في شباب القرية من يساويه في ضربة
فأسه وطول نفسه . يعمل طول نهاره ولا
يكاد يكل ، وإذا تحمس في عمله نبى نفسه
فقل ملا يطبق غيره أن يفعل ، وإذا نافسه
في البأس والحمد منافس حمل كل هم أن
يفوز عليه ، فإلى إلا لحظات حتى يحمل
على الإذعان منافسه ، وبصحك منه ، ولند
يتكاثر عليه المنافسون فإذا بهم تبهرهم قوته

وتحزيمهم عزيمته . ولقد شاع في القرية
حديث بطولته كما شاعت فيها مواويله .
وإنه ليتغنى بالواويل أثناء العمل فينصت له
الشباب مأخوذين بسحر صوته وقد ملأ
الطرب أجسامهم ، إنه كذلك يغنى غناء
هاوي في بعض الأعراس فما أن يذاع أنه
سينفى ذات ليلة حتى يقل فتبان القرية على
دار العرس فيملاً ونها ويملاً ون الشارع
أمامها وتقل الصبايا فيملأن الأسطح
القرية ومداخل الحارات . ويقترح عليه
الشباب أى معنى فما أسرع أن ينظم فيه
موالا جديدا وما أسرع أن يصلصل حلته
القرى بتطريب عجيب ، ينمى من أعماق
نفسه فويا تجلجلا حتى لكان يهز الدور هزا

دخل صابر داره وفي يده منديل يحمل
فيه أشياء اشترىها في طريقه من دكان ،
وكانت تضئ نعن الدار مسرحية ترسل
داخلها الكفيف في كوة صغيرة قد اسود
سقفها وجوانبها من كثرة ما علق بها من
الحباب . وكانت أمه جالسة مع أخته
فتحية بجوار المصطبة ، وكانت تطعمان الحيز
القديد والمحال . ورأى في نظرة أمه إليه
أنها كانت ترقب قدومه وإنه ليقطن إلى
ما تريد ، وقال لها دون أن يحسبها « ماذا
تأكلان ؟ » ووضع منديله على المصطبة

وقبل أن تجيئه إحداها ذهب إلى مجلته وكانت تحت عريشة بغير باب في جانب من صحن الدار ، ونظر فيما أمامها من علف ، وقلبه بيديه ثم عمد إلى مقطف بجوار المصطبة فأخذ منه بمض الفول ونثره على ذلك العلف ومسح بكفه على ظهر مجلته وهو يسأل أخته هل سقيتها ؟ فأفسمت له فتحية وهى بنية خفيفة الروح فى الثاية عشرة من عمرها أنها سقتها ثلاث مرات وأشهدت أمها على ما تقول ، فأخرج لها صابر من منديله نصف رغيف وقطعة من الحلوى الطحينية ، وأعطى أمه مثل ما أعطى أخته ، وجلس على حافة المصطبة يأكل ما تبقى له فى المندبل

وقالت فتحية : متى تمطينى ثمن مندبل لرأسى وقد وعدتنى بذلك ألف مرة ؟ فأجابها صابر : سأشتري لك مندبلا بوم السوق ما دمت مهتمة بمجلى

فقال أخته ضائنة : تقول هذا كل أسبوع ولا تمطينى شيئا .. أأست مثل ... ونظر إليها أحوها فى غضب فلم تقل مثل نعيمة . وفطنت أمها إلى ما تريد فتحية فشت فى وجهها كدرة وزمت شفتيها متكرهة كما تفعل كلما ذكرت نعيمة . فقال صابر لأخته وهو يشير إلى يديها يريد أن بغير مجرى الحديث ...

ومن اشترى لك هذه الفواش الجميلة ؟ فضحكك فتحية ورن فى صحن الدار صوتها العالى وقالت : أنت اشتريتها .. ربنا يخليك يا صابر وأفرح لك بالعروس التى تحب .. ثم عادت تضحك فى كثير من الرعونة فحجبها أمها زاجرة فأمسكت فى جهد . ثم تركت أمها وأخاها وخرجت إلى الحارة وقد سمعت صاحبات لها يتغنين ويلعنن ...

فقال أم صابر لولدها : يا صابر أبوك فى حاجة إلى جنيه . وقد ظل ينتظر هنا طويلا ثم ذهب إلى الجامع

فتغير وجه صابر وكان لا يزال به أثر السرور مما قالت أخته ؛ وقال لأمه : ذهب إلى القهوة لا إلى الجامع .. جنيه ؟ ومن لى بهذا الجنيه ؟ ألا يكفى أنى أطعم نفسى ؟ إنى أعمل عمل الأجير طيلة نهارى ثم يأخذ أبى قروشى فيضيعهم فى القهوة ! حنابأ أحذف روشي ؟ فقالت أمه : إن نصف الجنيه دين عليه يريد أن يؤديه ، وزيد أن تشتري بالنصف الآخر ذرة وقد أوشك أن يتفقد ما عندنا منها فنظر صابر إلى وجهها الضارع المصفر وإلى عينيها اللتين تمسكان الدمع فى جهد إلى بدنهما الذى نال منه الكدح وقال : غدا أحضر لك الجنيه .. ولكن اسمى : إنه إذا طلب منى شيئا بعد ذلك فلن أدفع أبدا فقالت أمه فى نبرات ملؤها الحماسة : الله

وعذره ، هو سالم الذي ألقى في السجن مرات فلم يرد السجن إلا تمردا وعتوا .

وأشار سالم بيده إلى صابر نحف إليه وإلى صاحبه . ووقف ثلاثتهم يتحدثون لحظة حديثا غير مسموع ، ثم علا صوت صابر في غضب ، فنهض الفتية من الحلقة واحدا في إثر واحد ، وقد أحسوا أن في الأمر شرا وتجمعوا حول صابر ومن معه ، وشخصوا بأبصارهم إلى صابر والحنق في معارف وجهه والثورة مل بدنه وهو يقول إنه لا يخشى أحدا إلا الله وأنه لا يعرض في أغانيه بأحد وأنه لا يعبده أن يحمل الفحم والطوب : ولولا أنه في ساحة العمدة لأراها كيف يرد على إهاتهما إياد . ثم اتجه إلى شبل قائلا : هل جئت بسالم لتخوفني به ؟ لم لم تحضر وحدك إذا كنت رجلا ؟ واستخذى شبل كما استخذى صاحبه . وأخذ سالم في مثل روغان الذئب يتنصل مما نسب إليه ويعلن أنه صديقهما معا وأنه يحب صابرا وما قصد إلا الصلح بينه وبين شبل . وأنه لن يتهدأ أحدا في ساحة العمدة

وعجب الفتية كيف يغضب صابر على هذه الصورة وما عرفوه إلا هادئا صبورا ، عذب الروح ، يصلح بين المتخاصمين ، ويطلق الشر بنكاته . وتساءل بعضهم فقال صابر : هل تصدقون أنني أعرض بينت خالته في أغاني ؟

يخلف عليك يا صابر ويطول عمرك يا ابني ويفرحك بينت الحلال

فقال صابر يداعب أمه ليضحكها : ومن تكون بنت الحلال هذه ؟ ألا تعرفينها ؟ فما كادت تبسم أمه حتى حبست أنفاسها وكادت تشيح عنه بوجهها وكان يقع عليه نور السرجة منذ أن انجحت إلى ابنها فأمعن صابر في مداعبتها قائلا : ولكني أعرف بنت الحلال هذه وهي واحدة لا ثانية لها . فأشارت أمه بكفها متقاطعة بإشارت الرفض دون أن تتكلم ، وضحك صابر ضحكة عالية فيها كثير من عذوبة روحه ..

فرغ الفتية بعد بضعة أيام من عملهم وجلسوا في آخر أمسية لهم متحدثين ، وقد نفضوا الزراب عن ثيابهم ووجوههم وكانت تملو وجوههم غبطة : فتدعاهم أن الأستاذ عليا عاد من سفره وأنه سيعطيهم من ماله الليلة عن يومهم هذا وعن الأيام التي غاب فيها عن القرية ، وكانوا يتحدثون بما عسى أن ينال كل منهم وما ينال صابر بوجه خاص ، وكان شيء آخر يدخل السرور على نفوسهم وإن لم يشيروا إليه في أحاديثهم . ففي القرية الليلة عرس وسيفنى فيه صابر ...

وبينما كان الفتية في حلقةهم إذ أقبل شبل ومعه فتى ليس في القرية من يجهل شدة

ينتهز على فرص العمل فيضاعف له الأجر..
والثقت إليه على فساله : ماذا يسرك بك

يا صابر ؟ هل كنتم تتشاجرون ؟

فأجاب صابر : لا .. أبدا وهل تتشاجر

في ساحتكم ؟ إنما أحس بشئ من التعب

فقال على : أنت تحس التعب ؟ قل كلاما

غير هذا يا صابر ... لا بد أنك لم تر نعيمة

اليوم هذا هو السبب الحقيقي

فابتسم صابر ولم يجب .. وبعد لحظة قال

لعلى : أرجو منك أن ترسل من يأتي بأبي

بعد أن أنصرف ، فتمنعه من السهر في

القهوة لقد رجوت ذلك كثيرا منك .. إنه

يرهقني بطلباته ويهمل القرار يسط التي

يستأجرها وماذا يعمل إذا تزوجت أو مت ؟

وضحك الأستاذ على قائلا : عجيب أن

يكون الولد هو الذي يدعو إلى استقامة

الوالد .. سأفعل ما تريد يا صابر .. قل لي

أصبح أنك ستغني الليلة ؟

فابتسم صابر وقال : إني أغني كما تعلم

يا سيدي غناء هاو ، فإذا اتاح لي المغي

السناجر فرصة غنيت .. على أن كل صاحب

عرس يتكدر خاطره إذا حضرت ولم أغن

ولهذا فلا بد أن ألبى .. ولسكن بعد أن يفرغ

المغني الأصيل من غنائه

فقال الأستاذ على : سأحضر الليلة بنفسي

لا سمحك . لا تعلم أحدا بذلك . وسيكون

ثم اتجه إلى شبل قائلا : وما أنت وهذا ؟ ثم

من أنت حتى تعيرني بعملى وهل يسير

الإنسان أنه يأكل من عرق جبينه ؟

وما أن سمع الفتية ذلك حتى أقبلوا على

شبل ينهرونه ، وكاد يتفاقم الشر لولا أن

أقبل على أخو العمدة فسكنت ريحهم ونسل

سالم وصاحبه

ثم تفرق الفتية إلا صابرا بعد لحظات وفي

راحاتهم من القروش ما ألحج بالدعاء لعلى

وأخيه العمدة ألسنتهم ، وفي نفوسهم من

التطلع إلى العرس وغناء صابر ما أنساهم

كلام شبل وما خفف عنهم تعب أجسادهم .

وجلس الأستاذ على كرسية ووقف صابر

إلى جانبه وما زال أثر الغضب في وجهه على

الرغم مما أصاب من نقود لو عرف الفتية

مقدارها لللاثم العجيب . وكان على يختص

صابرا بمحبته ، وينزله من نفسه منزلة بين

التابع والصديق ، ولولا العرف وما ينطوى

عليه من سخف كثير لو ضمه في موضع

الصديق . ففي إجازاته لا يكاد يرى صابر

إلا معه إذا لم يمنعه من ذلك عمل . يرسله على

في أكثر أسوره ، ويأنس بفكاهاته وأحاديثه

عن القرية وأبنائها . وإن غلبا ليعجب من

تعفف صابر على ما به من خصاصة فما يطلب

منه مالا أبدا مهما بلغ به العسر . ولا يطمع

منه في مناع أو زاد كما يطامع غيره ، لذلك

أحرك منى لا من صاحب العرس

وبدت الدهشة والغبطة في وجه صابر ثم
قال : هذا شرف عظيم لى ولصاحب العرس
والقربة كلام

مضت ساعة بعد صلاة العشاء ولم يعد
شبل إلى داره . وكان أبوه الحاج عثمان في
الدار ينتظره قلنا ساخطا عليه لتأخره ،
وكانت أمه تهون له الأمر ، وتلتبس المماذير
لتأخر ابنها ، وإنها لتعلم أن هو فهو في دار
خاله لا يكاد يتجلف ليلة عنها على الرغم من
سبق محمد ابن خالته به ، ولكنها تقول
تزوجها لعله يلم ببعض الدور ليتفق مع من
يعينونه غدا في الحرائة ، أو لعله خف إلى
بيت أخواله ليمود حسنا ابن خاله ، وماهى
إلا لحظة ثم يرجع . ولكن أباه لا يقتنع
بهذا ويصيح بها في غضب قائلا وهو أمام
منظرته تحت فانوس يرسل ضوء الخرافات
في صحن الدار الواسع : اسمى يا امرأة . .
ما دامت يدي هذه تلف عمامتي لا أسمع
لأحد من أبنائي أن يعصيني . إن أخاه
الكبير معنا من بعد صلاة العشاء . أظن
أنى غافل عنه ؟ لقد سمعت الليلة في الجامع
أنه اتخذ سالم حماد صديقا له وليس في البلدة
من يحمل من هو سالم . إنه يستفعل ابنك
ليأخذ منه ما يستطيع أخذه من مال ومن

زرع . ولقد كاد يحجره الليلة إلى مشاجرة في
ساحة العمدة مع صابر بن جودة . وكيف
يقوم ابنك غدا إلى عمله قبل الشمس وهو
لم يتم حتى هذه الساعة ؟ لقد اتفقت منذ
المغرب مع من يعينوننا ولدينا مزارعوننا وعم
من أقوى الرجال

وهمت امرأته بأن تطفى الفانوس لتصرفه
إلى عرفته في أعلى الدار لينام ، مكتفية بنور
مسرحة في كوة عند باب السلم وأخرى في
مدخل الحظيرة . ولكنه استمهلها مغضبا
فهو خارج ليلتمس ابنه ، ودخل المنطرة
فأخذ هراوة في يده ومضى يريد الخروج فلم
يسكد يفتح باب الدار حتى وجد ابنه على
عتبتها ، فأمسك بتلابيبه بيسراه وهو يسأله
أين كان حتى هذه الساعة ، ثم رفع هراوته
يريد أن يهوى بها على جسم الفتى وكادت
زوجته تصرخ ولكنها أمسكت بالهراوة ،
وظلت تتوسل إلى زوجها حتى أطلق ابنه
وقد عقدت المفاجأة لسانه . وكأنما أراد
شبل أن يطفى نائرة أبيه ، فذهب إلى
الحظيرة فقلب العلف أمام الثور والبقرة وألقى
عليه بعض الفول ، ثم فعل مثل ذلك بملف
الجاموسين والحير الثلاثة ، وأطعم مسرحة
الحظيرة وأعلق بابها . فقال له أبوه . إذا
تأخرت خارج الدار بعد ذلك كما فعلت الليلة
قلن تدخل دارى ، وإذا بقيت على صلتك

مدخل إحدى الدور الواسعة الظاهرة النعمة
جلس على أخو العمدة على مصطبه مع
صاحب الدار

وأخذ معنى العرس يبدى مواويله
المحفوظة ويعيدها ويجمع « النقوط » من
هذا وذاك . والناس ضئفون يسألون متى
يبدأ صابر . وفطن أصحاب العرس إلى
ضجر الناس ، فما كاد ضيوفهم يفرغون من
شرب القرفة حتى دعا أحدهم صابرا ، فضج
الشباب بأصوات الفرح ثم سكتوا وأرهفوا
آذانهم . وتزاحف النسوة والصبايا على
الأسطح يقتربن ليرين صابرا وهو يغني

ووقف صابر في جلبابه الأبيض النظيف
وعلى رأسه طاقية أنيقة بيضاء فيها قليل من
صبغة زرقاء ، وعلى أحد عاتقيه كوفية منتوشة
من الحرير وفي يديه أرغول طويل . وكان
مرفقه تحت أحد المصاييح فأضاء وجهه
الأسمر الوسيم حتى ليرى المصفوران في
عاضيه . ودار صابر بعينيه في الجالسين
لحظة ، وهو يختلس النظر إلى الصبايا على
الأسطح عن يمين وشمال ، ثم نفخ في
أرغوته لحنا قصيرا ، ما كاد يفرغ منه حتى
وضع على خده الأيمن كفه وقد أظهر النور
ما يخططها من وشم . وبدأ صابر بموال
جديد فصاح في صوته الممتلئ الجميل قائلا :
« صابر على الجربس الحلو موش دادي »

بسالم فلست إبني . أتمير صابرا بأنه أجير ؟
والله إنه خير من عشرة مثلك

ونظر شبل صامتا إلى أبيه وهو يصعد
السلم ، حتى إذا خلا إلى أمه قال لها في
صوت تخشى أن يجهر به وهي تلوهم
بنظراتها : حتام يعاملني أبي كأني طفل !
ونظرت أمه إلى بدنه النحيل الطويل
ووجهه الشاحب وطاقيته الصغيرة ،
وذكرت كيف كان كالمصفور في يد أبيه
القوية وكيف كانت عمامة أبيه المتخذة من
صوف غرله بيده ترتفع عن هذه الطاقية
شبرين وتبدو كأنها قدر خمس مثلها

وقالت له أمه : ألم أقل لك كفي ذهابا إلى
دار خالتك ؟ أتذهب كل ليلة ؟ هل تخشى
على نعيمة أن تطير ؟ متى تصبح عاقلا ؟ لقد
سمعت أنها كثيرا ما تهرب من الدار إذا
كنت هناك معتذرة بأي عذر ، وأنت لا تريد
أن تفهم

امتلاأت الدكة الخشبية أمام دار العرس
شباب القرية ، وجلس نفر من الشيوخ
على المصاطب أمام الدور القريبة ، وقد أضاءت
المصاييح القوية المتدلية من الأعمدة الفضاء
بين هذه الدور . وجلس على الأسطح في
الظلام حشد من النسوة والصبايا ، كن
بن الرجال ولا يكاد هؤلاء يرونهن ، وفي

وانتظر حتى قرت أصوات الاستحسان
فقال «أنا اللي قلبي انكوى لكنتي باداري»
وانطلقت صيحات الشباب وانبتدت
حماستهم ، وانبعثت بعض الرغاريد من
الأسطح . ثم ساد السكون ؛ ونظر السامعون
إلى المبنى الشاب وقد أحسوا أن معانيه
تبعث من قلبه كمهدم به إذ يفنى ، وبلوا
مبلغ تأثره فيما تشككت به أساريه فقد كان
يبدو كأنما أخذته حال عن نفسه ثم صلصل
حلقة بقوله « صابر على النار لا أهلى ولا
دارى — ولا نعيم الصبا يطغى لهيب نارى » :
وما أتم هذا البيت حتى تصاحج الشباب كأنما
طاف بهم طائف من الجنون . فلما سكثوا
عاد الفتى يقول « صابر على النار » وتوقف
قليلا فصاح أحد السامعين وهو رجل عرف
فى القرية بحسن النكتة قائلا « صابر على
النار ؟ لا والله بل على الجنة يا صابر بعد
طول عمر .. وهل يدخل النار من يفنى هذا
الفناء ؟ » وضع السامعون بالضحك حتى
السوة فقد تضاحكن وعلا ضياطنهن . وثاب
صابر إلى نفسه فأضاءت وجهه ابتسامة جميلة
وأخذ صابر يفنى وقد ملأ السرور
كل قلب ، ولكن ما راع الناس إلا نكتة
سمجة باردة نطق بها ثقيل أحق فكادت
تفنى إلى معركة بين الشباب وبين قائلها ،
وكان لها من سوء الوقع فى نفوس الناس بقدر ما

كان لتلك النكتة الظريفة السالفة من حسن
الأثر . فعندما وقف صابر عند قوله « ولا
نعيم الصبا » سمع من يقول « نعيم أم نعيمة ؟ »
وتلفت الناس فإذا بسالم هو صاحب النكتة
وأخرج أصحاب العرس ؛ وهم بعض الفتية
بضرب سالم ، وأوشك العرس بذلك أن
يستحيل إلى معركة ، لولا أن ظهر على فدا
سالم ونهره وسرفه فى غضب وتوعد
ونسى صابر ما حدث وعاد يفنى حتى أنه
مواله ، وقد أوشك الليل أن ينتصف
وأقبل عليه أصحاب العرس والسامعون
بحيونه ويثنون عليه قبل أن ينصرفوا
ونادى على صابرا فنحجه جنينا ، وأخذ
صابر فى استحياء وغبطة ، ورأى على و
وجهه شيئا من الانقباض ، فعزاه إلى
ما حدث من سالم فنصححه ألا يهتم بذلك
فحسبه أن الناس جميعا كانوا يعطفون عليه
وحسب سالم ماصبه الناس عليه من سخا
وازدرا .

ومضى صابر إلى داره . ولكن شيئا
آخر كان يقلقه ، فإن نفسه تحدثه أن نعيمة
لم تشهد هذا العرس . وقد التمسها بعينيه
بين الصبايا على الأسطح فلم يجدها ، وما
يذكر أنه تبنى فى عرس وغابت عنه ،
وإنها لتحرص أن تجلس على السطح لحظة
أول الأمر بحيث يراها ثم تندس بين

الفتيات ، وإيها لتسرعى انتباهه عند
انصرافها إذا لم يرها أول الليل

وبلغ داره فوجد نبأ ما فعل سالم عند
أمه قد حملته إليها أخته فتحية . وسألته
أمه لماذا يتحرش سالم به وحذرت من شره
وهي تنغمم مغضبة كأنما تحدث نفسها
قائلة : مالنا ولهذا البنت ياباس ؟ أليس ابن
خالها أولى بها ؟

ونظرت فتحية إلى أخيها باسمه ، فقرا
في وجهها ما تريد أن تقول ؛ فددت منه
حتى لا تسمع أمها وقالت : نعمة لم تكن
في الفرح . علمت من صاحباتها أن أباهما
خرج عليها كما طالب منه شبل ابن خالتها

كادت نعمة أن تبلغ الثامنة عشرة من
عمرها . لو رآها من ليس يعرفها لخالها فتاة
رائعة الحسن من بنات العلية في المدن تربت
رى فروية ، فوجهها الأبيض المتورد الجميل
وعيناها الخضراوان المتألقان وشعرها
الأصفر الجزل ، كل أولئك قل أن يتفق

لصبية من سيايا الريف . وهي إلى الطول
أقرب منها إلى القصر . وإلى الامتلاء أدنى
منها إلى النحافة ، بضعة غضة . وإيها
مع ذلك لدقيقة الخصر مستوية القد جميلة
الأطراف ، تسرعى الأبصار يداها
الصغيرتان وقدماهما الدقيقتان ، بقدر
ما يستريحها دلال مشيتها ومرح لفتتها

وجراء نظرتها وسذاجة انسامها . وإيها
لتضحك في شيء من الرعونة وترفع صوتها
الساحر العذب في الحديث حتى ليحسبها
الجاهل أموبا ماحنة ، إذ هي في الواقع محصنة
ليست من المجون في شيء . ولعلها اكتسبت
لون بشرتها ونعومة بدنها وبضاضته وجمال
صوتها ، من أمها ، فلقد كانت لأبها شهرة
بهذا كله أيام صباها ، ولا يزال لها بقية
منه ، أما جمال وجهها ووسامته فن أبيها ؛
فوجهه على الرغم من كهولته ناطق بما كان
من رونق شبابه وقسامة حياه ، وأمسذاجتها
ومرحها فن أبيها معا ، فأبها ضاحكة أبدا
عالية الصوت في الضحك والحديث خفيفة
وعذبة ، وأبوها عذب الروح ، يضحك ملء
أنفه متهمة إذا روى نبأ أو ضرب مثلا ،
وهو على قلة ما قسم الله له من رزق وكثره
من يعول من عيال قانع دائما متفائل
لا ينسخط ولا يشكو . . ذلك ما اكتسبته
نعمة من أبيها ، أما خضرة عينيها وصفرة
شعرها فليس يعلم أحد مصدرها

حين بها صار ثم أحبته وشففها حبا
حتى صار حبهما حديث القرية كلها
ومضرب المثل للحب فيها ، فهي حلم شبابه
وأمل عيشه وملهمة أغانيه . وإيها لنزهى
بذلك ولا تنكره إذا داعبتها به صويحباتها
فتضحك ويخفق قلبها ونشيع البهجة

أما أهل صابر ، فأمه لا تميل إليه من أول الأمر مخافة أن يجره ذلك إلى نزاع لا قبل له به مع شبل وأهل شبل . وأبوه لا يلتقي باله إلى ذلك في كثير ولا قليل وكانت نعيمة لا تطيق أن تسمع اسم شبل وما تسي مرح طبعها وصفاء نفسها إلا حين يذكر لها صواحبها أنها سوف تكون له . فتغضب وتتهم أن تعبر بالكلام عن غضبها ثم تمسك عن الكلام في جهد

ولكن ابن خالتها واثق من الظفر بها أو يكاد يثق بذلك ، فأبوها لن يعصى أمرا لأبيه ، وأمها خالته قبل كل شيء ، وأين صابر الذي يعمل حتى في حمل الفحيم الطوب منه وهو ابن رجل ذي سعة في الرزق . وليس ما يقلق شبل إلا الأستاذ على فلمله بنفوده وجاهه يستطيع أن يحدث شيئا

بكرت نعيمة وأمها بمدأيم إلى دار خالتها يعينانها في خبز طحينها الكثير ، وكان في الدار غيرها بعض نساء اخارة وفتياتها ، كل تعمل عملا يتصل بالخبز وكانت نعيمة على غير عادتها عابسة صامئة ، وبخاصة كلما نظرت إلى فهيمة زوجة ابن خالتها الأكبر حمس ، تلك التي كانت تغضبها ولا تحب أن تراها سلفا لها لطيشها كما اعتادت أن تقول ، وغيره منها كما تقول نعيمة ضاحكة كلما علمت بذلك ، وكأنما

والنشوة في جسمها كله . وإن كثيرا منهن ليحفظن مواويله وبعدها عليها . متذكرهن بعض ما نسينه منها

وكثيرا ما تلقى صابر ولقيته في الحقول على غفلة من الناس ؛ وكثيرا ما تلقى في دار قريبة له هي صالحة بنت أبي العيش ، مع ابنتها زينب . وفي زحمة الأعراس كان يراها ونزاه وتسمع مواويله وتبفطن أكثر من عبرها إلى معانيه ، وكثيرا ما أهدى إليها من النوائش والمناويل التي تطرزها زينب على قعر ما تتسع له قروشه . وكان أهل القرية يتمنون أن يصبح له روجا فهم يحبونه ويعجبون به ويعطفون عليه لدمايته واستقامته وبطوانته ، فما عرفت القرية فرعا من حريق أو غرق أو عراك إلا كان صابر في طليعة من يدفعون البلاء في همة وتحمس . ثم إن الناس يعلمون ما في قلب نعيمة من حب له ؛ لذلك أحب أهل القرية أن ترف إليه كأنما روضها خير هدية تهدي إليه ولكن خطيبها هو ابن خالتها شبل سميت عليه منذ طفولتها ، ويريد أبواها وأبواه ألا تكون إلا له ، وليس في جانب صابر من أهلها إلا أخوها محمد فإنه يحب صابرا منذ صغرها ولا يزال على مودته له وإعجابه به ولذلك فهو متحمس لأن ترف أخته إليه

الآن كيف تحمل الطوب والفحم هي الأخرى .
وتضرج وجه نعيمة وازداد نالقي عينها
الخضراوين من الغضب والتحدى الصامت
فبدت كأنها هرة وحشية . ثم سمعتها بعض
الفتيات تغفم قائلة : وأحمل الطين أيضا
لا دخل لأحد بي .

وسمعتها ! أمها فقالت : دعوها --- دعوا
هذه المجنونة التي لا تستأهل النعمة .. ومن
يتراء دار العز هذه إلى --- ماذا أقول وهو
ابن خالتها .. عشنا حتى رأينا البنت تخالف
أهلها وتختار لنفسها ؟ ومن يقرها على قلة
حياتها ؟ تنكسر رقبتها .

وظلت نعيمة طول نهارها صامته عابسة
حتى فرغت من عملها فسبقت أمها إلى دارها
وملأ نفسها العجب من خالتها إذ تحتفظ
بتلك الخيوط التي قطعها من ذيل ثوبها

أخذ حديث صابر ونعيمة يملا القربة
بالشائعات ، فالفتيات يتحدثن بأنها قالت
لأمها إنها إذا زفت إلى شبل على رغم أنفها
فسوف لا تعيش معه وإن قتلت . ويتهامس
بعضهن أن حبها لصابر يبعث على الريبة في
أمرها . والفتية يتحدثون بأن سالما يتربص
بصابر ، وأن بعض الناس شهدوا معه منذ
أيام رجلا غريبا فظيع المنظر من الشاطئ
الغربي أو بر البحيرة كما يقولون ، وقال

أغرى صمت نعيمة وعبوسها الفتيات بها فرحن
بما كسبها . قالت إحداهن لخالتها : متى
بمقد عقد نعيمة على شبل ؟

فضحكت خالتها قائلة : حالا بعد أن
تخضر الأرض . وضحك كل من في الدار
إلا نعيمة فما ازدادت إلا عبوسا وتبرما .
وكرهت أمها ذلك منها فلامتها أول الأمر
بنظراتها . ثم ما لبثت أن وجهت إليها سبلا
من ألفاظ السباب التي تجري بها ألسن
النسوة في القرية وقالت : هل تستأهله ؟
إن ظفرد بألف مثلك .

ولم تنفرج شفتا نعيمة عن كلمة أو ابتسامة ،
وهي التي كانت ترى مرحلة أبدا . ترفع
صوتها بالضحك وتضحك كل من حولها .
ودنت منها خالتها وتناولت ذيل ثوبها . وقد
بدلت منه خيوط كأنها الأهداب الطويلة
مقطعها مخافة أن تعثر بسببها ابنة أختها كما
قالت ، ونظرت نعيمة فوجدت خالتها تحتفظ
بهذه الخيوط في يدها فدهشت وقطبت
باصفر وجهها قليلا

ودخل شبل الدار وقد ارتفع الضحى
مدفع حماره أمامه وقد جاء به من الحقل
ليحمل عليه علفا وطعاما . وضحكت بعض
الفتيات وسألته إحداهن لم لا يجي عروسه ؟
فضحكت أولا ثم ما لبث أن عبس وأشاح
بوجهه قائلا : عروسي ؟ عليها أن تتعلم من

أبي ؟ . وصرخت فتحية باكية وأخذتها
أمها بين يديها وهي تبكي قائلة : حسبي الله
يا ولدي على من يريدك بسوء ... يارب
أنت موجود .

ويعجب الناس إذ يرون صابرا وقد أخذ
يشحب لونه ويضمر بدنه ! وقد ذهبوا مذاهب
شتى في تعليل ذلك . فقال بعضهم إنه الحزن
ولوعته ، فقد حجبت نعيمة في دارها ولم يعد
يراه . وقال آخرون بل إنه الخوف من سام
وما يبيت له من غدر . وقال غير هؤلاء كلا
بل إنه المرض . فقد شاهدوه أكثر من
مرة منذ بضعة أيام يضع يده على جنبه ويتأوه
أثناء العمل . وهو الذي لم يكن يعرف
قبل ذلك ألما .

ويفال بدنه القوى مابات يطرا عليه مما
يشبه العلة ، فيبدو أحيانا أنضر ما يكون
وجها وأحسن ما يكون عافية ؛ ويتراءى
أحيانا وفي وجهه سهوم وشحوب ، وفي
مشيته تخرج ، وفي عينيه ألم ، ولقد رآه إحدى
النسوة ذات مرة وهو على هذه الحال فهمست
تقول لصاحبتها : وا كبدي ... لقد أخذت
الكتابة تفعل فعلها فيه ... منهم لله القوى ..
واعيني على شبابك يا صابر . كان الله في عون
أمه المسكينة ... من لها بعده غير الله .

صالحة زوجة أبي العيش أرملة تقيم هي

بعض النسوة إنهن شاهدين بأعينهن شيئا
معهما بمهمة خضراء يحرق البخور في دار أم
شبل وذلك في غيبة زوجها وبنيها ، وتها من
أنه كتب لصابر بما يحمله يرزح كاليت ، وأن
نعيمة سوف لا تطيق أن تسمع اسمه ،
وسوف تحب شيلا بقدر ما كانت تحب صابرا .
وقال غير هؤلاء إن سالم هو الذي يأخذ
المال من أم شبل ليعطيه لرجل يستحضر
الجن ، وقد رأى زوجها سالما في الدار مرة فقال
له لولا أنك في داري لحطمت رأسك وطردته
ثم انبهال على ابنه ضربا حتى ما استطاع
الرجال أن ينقذوه منه إلا في جهد ، وهم
زوجته ليضربها خال بينه وبينها أهل الحارة
وكان الأستاذ على قد سافر فعلم بعض
الفتية سفره بأنه أراد أن يعتمد عن القرية
ربما يدبر العمدة مكيدة يزج بها سالما في
السجن حتى لا يذكر اسم على إن عرف أمر
هذه المكيدة

وسألت فتحية أمها ذات يوم قائلة :
هل تنفع الكتابة فيمجز صابر أخى ويرزح
وهو لم يؤذ أحدا ؟

فقلت أمها : أية كتابة ؟ وما مناسبة
هذا السؤال يا بتي ؟

فقلت فتحية : أم شبل كتبت لأخى
والنبي يأمى ... والنبي اكتب لي حجابا ...
أيرزح صابر أخى ؟ ومن يطعمنا ومن يساعد

وابنتها زينب البالغة من العمر أربعة عشر عاماً في دار لها منعزلة في الطرف البحري للقرية؛ بينها وبين الدور في هذه الجهة نحو مدانين من الأرض الزراعية الخالية من المباني، وبينها وبين الطريق الزراعي العام نحو ثلاثين متراً، وتكاد تحجب وجهتها عن المارين بهذا الطريق شجرة توت كبيرة تقوم على مقربة من بابها ... ولهذا الأرملة غير ابنتها زينب ابن يعمل خادماً في إحدى المدارس بعاصمة الإقليم، ولا تكاد تراه إلا حين يزورها مرة كل شهرين أو ثلاثة.

وبين صالحة وصابر صلة رحم بعيدة من ناحية أخواله الذين طواهم الموت. وكانت نعيمة صديقة لزينب، وكثيراً ما لقيها صابر في دار زينب إذ يسمى إليها بحجة أنه ينوب عند قرييته عن ابنها النائب. وكان صابر يلم بدار قرييته هذه من حين إلى حين لأنه في طريقه إليها يمر بدار نعيمة فيتواعدان بنظراتهما على الالتقاء أو يكتفي بأنه ينعمش روحه بنظرة منها وبخاصة إذا غابت عن عينيه يوماً أو يومين. ولكن صابراً لا يلم اليوم بدار قرييته وفي القرية ما فيها من حديث وحديث شبل.

وجاءت زينب ذات يوم إلى صابر تنبئه أن أمها تريد أن تراه في دارها عقب المغرب وترجو منه ألا يتخلف أو يتأخر.

فلما غربت الشمس، أخذت صالحة ترقب قدوم صابر أمام دارها، حتى إذا غاب الشفق رآته مقبلاً. فلما ألقي إليها التحية قالت وهي بين التبرم من تأخره والارتياح لمجيئه: أدخل فانظر من بالدار. فدخل صابر دهشاً وإن أحس قلبه ماذا تريد صالحة بمبارتها، ونظر فإذا نعيمة بالدار تجلس مع زينب على حصير فلم يسكد بصدق عيذه ولم يدر أول الأمر ماذا يقول وكادت نخونه قوته، ودخلت في إثره صالحة فقالت: جاءت نعيمة تأخذ مناديلها من ابنتي وقد طرزتها كما أرادت. وابتسمت نعيمة متظاهرة بالوافقة، وفي لمح عينيها أنها جاءت لترى صابراً حيث طلبت أن تراه.

وسلم صابر فردت زينب تحيته وغنمت نعيمة. ثم مضت زينب لتعد الشاي، وانصرفت أمها إلى خارج الدار فقال صابر: نعيمة.. كيف أرد لك هذا الجميل؟ لقد ضاقت بي الدنيا لغيابك عنى.. كفاي جميلك هذا ولو مت غدا لخرجت من الدنيا مستريح البال... لقد سمعت أنهم ححبوك، وكنت أفضى الليالي ساهراً اتساءل كيف أراك.. كيف أرد لك هذا الجميل يا نعيمة؟

وأخذت نعيمة تنكت التراب بمود قصير من القطن في يدها. وارتاع صابر لما رآه من هم في وجهها فأمسك بيدها الغضة

برونه في عمل أو يسمونه في عرس . وقال
أحدهم ذات مساء لصاحب له : يا أخى ، يظهر
أن السحر والكتابة لها أثرهما ! فهذا صابر
الذى كان بيننا كالبكر قد برك ... أليس
في قلوب هؤلاء الناس رحمة ؟

فقال صاحبه : ما الكتابة ؟ وما السحر ؟
هذا كله كلام فارغ ... صابر يشكو من
جنبه في مثل هذه الأيام من كل عام ، وذلك
منذ أكثر من سنتين ، ولكنه لم يهتم
لقوته وعافيته ؛ ولأن الألم كان لا يمتكئ إلا
بضع ساعات . وقد رأيته منذ أيام وقد ترك
الطبيبور في الختل وعاد إلى القرية يلمث ويده
على جنبه وهو يكتم ألمه ويغالب مرضه ؛ وقد
سأله فقال إن مرض جنبه اشتد عليه .
والحقيقة أنه لو كان هذا المرض في جسم
غير جسم صابر لهدده من زمن ؛ ولكنه كان
يتكل على عافيته ولا يبالي ولا يعالج نفسه !
أما السحر وغيره فخرافات نساء .. وقد سألت
الواعظ عنها فقال هذا جهل ووهم ولا يصح
أن نصدق . وما دخل السحر في أن يقول
صابر الدم والصيد ؟ فقد حدثني محمد
شحاته أخو نعيمة أنه رأى في بوله كثيرا
من الدم

وذهب الفتيان إلى دار صابر ليعوداه
فوجداه فيها كثيرا من صحابته وسرا إذ
رأياه معافى لولا شحوب في وجهه وضهور

الجميلة ووضعها بين كفيه القويتين وسألها
ما بك يا نعيمة ؟ فرقت إليه عينيها الجميلتين
قائلة : احذر من سالم يا صابر . ألم تفكر
في أن تلبس حجابا يحميك ؟

فضحك صابر قائلا : صدقنى . أنا لأعيا
سالم هذا ولا بعشرة من أمثاله ، وما هو إلا
دجال يحتمل على ابن خالك لا غير ، وأنا أفهم
الأعيه . أما الحجاب والكتابة فكأنها كلام
فارغ لأصدقته ، وما دمت لى يا نعيمة فلا أبالي
بشيء . ثم ضغط على يدها قائلا : لن أعيش
يوما واحدا يا نعيمة إذا صرت لنيرى .

وحملت نعيمة لحظة في وجهه ، ثم انحدرت
دمعان على خديها ولم نجب . وأطلق يدها
فأدخلها في جيبها وأخرجت منه حجابا
وناولته إياه مبتسمة ؛ فأخذته ودسه في جيبه
ضاحكا وهو يقول : سيكون حجابك أغلى
عندى من كل شيء ، وسبحمى فلن أخاف !
وشكرته بنظرة ثم قالت : عشت يا صابر ،
وأنت ... أنت أغلى عندى من عبنى

وهم صابر بأن يأخذها بين ذراعيه ،
ولكن زينب أقبلت بالشئى . ونهضت
نعيمة ممجلة إلى دارها ممتدرة بأنها تأخرت
ووضعت يدها المرتمة في يد صابر مسلة
ثم تلثمت بطرحها وغادرت الدار بسرعة

غاب صابر عن رفاقه أياما فلم يعودوا

جودة زوجها قادم من القهوة وقد تقدم الليل ، فأخذ الفتية ينصرفون إلى دورهم ولما خلت الدار منهم نظر الرجل إلى ابنه قائلا « الحمد لله يا صابر على شفائك .. الدار من يوم أن رقدت يا ابني وكأنها خراب ، والقيراطان إن لم تشارك الذرة فيهما يمرض ربنا علينا »

فقال صابر « لا تخف يا أبى فسأدفع عن السماء حين أقبض بعض الأجر المتأخر لى عند عمر البناء وغيره .. وستصبح الذرة بإذن الله أحسن ذرع فى البلدة »

امتلات منظره الحاج عثمان بدر عصر ذات يوم بنفر من أقاربه وأصحابه وجيرانه حتى لم يبق مكان خل على دكة من دكها الخشبية التى تدبر بجدرها وكان شحاته ... الخولى فى ركن منها قريبا من الحاج عثمان . وكان شبل وابن خالته محمد شحاته يجلسان على مصطبة خارج المنطرة تحت نافذة من نوافذها

وبعد أن شرب الضيوف القهوة قال الحاج عثمان يخاطب شحاته « لم تقل لنا يا شحاته متى تبت فى هذه المسألة . متى تذهب إلى دارك لتخطب البنت نعيمة لابن خالها ؟ أردت أن أكلك أمام أسيادنا

قليل فى بدنه . وكان رفاقه يدبرون (الجوزة) بينهم ويدخنون المسمل ويضحكون فرحا بشفائه ، وكانت فتحية تريد النار فى الكانون تحت قدر كانت كلما فرغت ملأوها عا أحضروه معهم من الشاى وشربوه أسود كاللداد . وشرب صابر من هذا الشاى وقدمت له (الجوزة) وراح أحد الفتية يقلده وهو يغنى ولكن فى صوت أشبه بتمعاب الغراب شد ما ضحك منه هؤلاء .

السامرون الذين أفرحهم شفاء صابر وجاءت أمه حسونة بوعاء فيه ماء ونار فألقت فيه بالملح وأدارته فوق رؤوس الفتية ، وهى تدعو أن يصيب الملح إذ يتطار عين الحسود وعين من لا يصلى على النبي

وكان محمد شحاته أكثر الفتية فرحا بشفاء صابر ، فأخذ الوعاء من أمه وأداره ضاحكا عدة مرات حول صابر ، وهو يقول مشيرا إلى ذلك الفتى الذى كان يقلد غناؤه « سيفنى لك هذا ليلة زفافك يا صابر ليملم الناس أن فى القرية من يفوفك » وقال بعض الفتية « ستكون ليلة فرح صابر فرح البلدة كلها » وأشار أحدهم إلى عجلته فى العريشة وقال « صارت العجلة تساوى متقدار المهر يا صابر » وقال آخر « لا .. مهر نعيمة أعظم من هذا .. إنها تساوى قدر وزنها من الذهب » ونظرت حسونة ماذا